

النفحة الرابعة: رَمَضَانَ شهر القرآن

يقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن سَهَدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ [البقرة: 185].

أيها الصائمون الكرام:

لقد اختار الله سبحانه وتعالى شهر رَمَضَانَ من بين سائر الشهور بإنزال القرآن فيه، ولهذه الخاصية كان جبريل يعارض النبي ﷺ القرآن في رَمَضَانَ كل سنة مرة، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه مرتين، ولقد قرن النبي ﷺ بين الصيام والقرآن فقال ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي رب منعتني الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن منعتني النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان»⁽¹⁾.

ولتلاوة القرآن فضل عظيم وثواب كبير، ويظهر هذا من تضافر نصوص كثيرة تبين هذا الفضل، ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»⁽²⁾، أي أجر على التلاوة وأجر على مشقة القراءة على صاحبها، فكم هو رفيع مقام الذي يحسن ويجيد تلاوة كتاب الله تعالى، وكم هي صحته كريمة، إنه يوم القيامة مع السفارة الكرام البررة إنهم ملائكة الرحمن، ومعهم يكرم الماهر بالقرآن.

(1) رواه أحمد في المسند، 2/ 174، رقم: (6626)، والحاكم في المستدرک، 1/ 740، رقم: (2036).

(2) رواه البخاري، 6/ 2743، رقم: (7104)، ومسلم، 1/ 549، رقم: (798).

واعلم أخي المسلم:

أنك كلما أكثرت من تلاوة القرآن كان لك نصيب وافر من شفاعته يوم القيامة، قال ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»⁽¹⁾ ثم إن القرآن لا يشفع لك فحسب بل إنه يقف ليدافع عنك في أهوال يوم الزحام، يقول النبي ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما»⁽²⁾.

ويؤكد الحبيب ﷺ على فضل تلاوة القرآن فيقول: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتنق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»⁽³⁾ ويقول: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فلا أقول: ألم حرف، ولكن أقول ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»⁽⁴⁾.

فتصور نفسك أيها القارئ الكريم عندما يناديك المنادي، أنت وأمثالك من قراء القرآن ويقال لكم: اقرأوا وارتقوا، وأبصار الناس ترمقكم، وأعناقهم تشرأب إليكم وأنتم في موكب الرحمن ترتقون، وعلى طبق القرآن تتألقون، وصدق النبي ﷺ عندما قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»⁽⁵⁾ وهذه الرفعة تكون في الدنيا والآخرة.

وأنت أيها الأخ الصائم الفضال:

في شهر رَمَضَانَ شهر القرآن لا شك أنك تكثر من تلاوة القرآن آناء الليل

(1) رواه أحمد في المسند، 254/5، رقم: (22247)، ومسند الشهاب، 257/2، رقم: (1310)، وغيرهما.

(2) رواه مسلم، 554/1، رقم: (805)، والترمذي، 160/5، رقم: (2883)، ومسند الشاميين، 320/2، رقم: (1418).

(3) رواه الترمذي، 177/5، رقم: (2914)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود، 73/2، رقم: (1464).

(4) رواه الترمذي، 175/5، رقم: (2910)، وقال: حديث حسن صحيح.

(5) رواه مسلم، 559/1، رقم: (817)، وابن ماجه، 79/1، رقم: (218).

وأطراف النهار، ولكن فلتكن أكثر قراءتك في بيت الله مع الكوكبة النيرة من المصلين الذين جعلوا القرآن مادبتهم، فتحلقوا حوله وانتفحوا بنفحاته وفي مثل هؤلاء يقول ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»⁽¹⁾.

رحمة وسكينة ومغفرة كلها لقراء القرآن، الذين يتلون هذا الكتاب بوعي لجلالة آياته، وقدسية سامية لإرشاداته، ويكيفون أنفسهم مع نفحاته ليزدادوا قرباً من الله جل في علاه، وبسبب هذه المعاني العظيمة، كان السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، إذا دخل عليهم رمضان فإنما هو لتلاوة القرآن، بهمة عالية ولهفة قلبية إليه عارمة، وخشوع لكلماته، وخضوع لأوامره، يقول النبي ﷺ: «إن هذا القرآن مادبة الله فأقبلوا مادبته ما استطعتم، هذا القرآن جبل الله المتين والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعجب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات»⁽²⁾.

ولقد ورد أن الأئمة الأربعة وغيرهم من سلف هذه الأمة، كانوا يختمون القرآن مرتين في كل يوم من رمضان، يقول عبد الله بن المبارك: أربعة من الأئمة ختموا القرآن في ركعتين: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبيرة، وأبو حنيفة النعمان.

وقال أيضاً: كانوا يستحبون أن يختم في أيام الصيف في أول النهار، وفي أيام الشتاء في أول الليل، حتى تكون الصلاة عليهم أكثر.

وكان سفيان الثوري رحمه الله، إذا دخل رمضان ترك جميع العبادات، وأقبل على قراءة القرآن، وكان مالك بن أنس رحمه الله، إذا دخل رمضان يفر من مذاكرة الحديث

(1) رواه مسلم، 4/2074، رقم: (2699)، وابن حبان، 3/45، رقم: (768).

(2) رواه الحاكم في المستدرک، 1/741، رقم: (2040)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة في المصحف، وحفظ عن أبي حنيفة النعمان أنه ختم القرآن في الموضوع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة، وفي شرح مسلم للإمام النووي، أن عبد الله بن إدريس الكوفي، قال لابنته حين بكت عند حضور موته: لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.

اللَّهُ أكبر هل هذا الكلام أسطورة من أساطير الزمان؟ هل هو حكاية من حكايات كان يا ما كان؟ لا وألف لا، بل هو واقع عاشه أولئك الأطهار، وحقيقة عرفها زمن أولئك الأخيار، عاشوا في رَمَضَانَ وفي غيره حياة السعداء، حياة من تذوق حلاوة الإيمان وطعم الإخلاص، ولذة المنادة، ونشوة المناجاة، إذا مروا بآية نعيم وكأنهم في النعيم يرتعون، وفي رياضه يتمتعون، وإذا مروا بآية جحيم خشعت أبصارهم، وسكبت عبراتهم وسمع لهم خنين وأزيز كأزيز المرجل... جعلوا القرآن غذاء قلوبهم، وقرّة نفوسهم، طبقوا أحكامه، أقاموا حدوده، فكانوا بحق مؤهلين لحمل رسالة القرآن والإيمان.

وإن من إكرام الله ﷻ لنا أن جابنا بفضل القرآن العميم، الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأوثان والأصنام والأحجار والأشجار إلى عبادة رب العباد، ومن التنافر والتقارع المقيتين إلى الوحدة والتماسك، ومن أساطير الأولين والآخرين، وعقائدهم الفاسدة وتصوراتهم المتهافنة، وقوانينهم الجائرة، إلى ربوع الحق واليقين، قال تعالى: ﴿الرَّ كُتِبُ أَنْزَلْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: 1].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، لتخرج هذه البشرية من الظلمات، ظلمات الوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازن، لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور، النور الذي يكشف هذه الظلمات، يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد، وإن وراء هذا التعبير القصير ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لآفاقاً بعيدة لحقائق ضخمة عميقة في عالم العقل

والقلب، وفي عالم الحياة والواقع، لا يبلغها التعبير البشري، ولكنه يشير، وليس في قدرة الرسول ﷺ إلا البلاغ، وليس من وظيفته إلا البيان، أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور فإنما يتحقق بإذن الله، وفق سنته التي ارتضتها مشيئته، وما الرسول إلا رسول⁽¹⁾.

وفي موضع آخر يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُم فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: 48].

ما أقواه من تصريح قرآني قاطع، فلا داعي لمؤمن أن يعود إلى الكتب السماوية السابقة مفتشاً عن طريق الحق والنور، فالنور التام والحق واليقين، والهداية الربانية المطلقة هي في هذا القرآن العظيم، الذي هيمن على الكتب السابقة، ونسخ الشرائع السالفة، خاصة وأن تلك الكتب قد تلوثت وتحرفت بيد العابثين.

لا داعي للعودة إلى تلك الكتب لأنها تحرفت، وهذا القرآن محفوظ برعاية الله وصون السماء.

لا داعي للعودة إلى تلك الكتب، لأن هذا الكتاب فيه من نور الله ما يكسب قارئه إشراقاً في النفس، وضياء في الوجه، فيرى سبيله مستيراً في سلوكه إلى الله، لا يشوبه غبش، ولا يحجبه ضلال أو ضباب، سواء كان غبش الأوهام والشهوات، أم ضباب الأطماع والخرافات.

لا داعي للعودة إلى تلك الكتب، لأن هذا الكتاب ليس مجرد عقيدة رهبانية تغمر القلب والضمير بالنور والروح، إنما هو مع ذلك منهج حياة قائم على أساس الولاء والعبودية لله تعالى، والتفلت من حاكمية العبيد والطواغيت.

(1) في ظلال القرآن، 4/ 2086.

وعندما ترنح المشركون علواً واستكباراً وطالبوا محمداً بمعجزات مادية محسوسة كي يؤمنوا به فقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: 50]، فيسترعي الحق انتباههم إلى عظمة القرآن فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: 51].

يا قراء القرآن يا صائمون:

إن الكتاب الذي تقرؤون لا يهدف إلى الترنم والتسليه به ولا إلى التنافس في إخراج الحروف من مخارجها بشكل تام، ولا إلى تزيين الأرفف والمكتبات به، ولا للتمتمة به على القبور والأضرحة والأموات، إنما هو لإحياء القلوب الميتة، وتهذيب النفوس الخربة، وتحويله إلى دستور دولي، وشريعة عالمية، وإلى حياة تنظم سلوك الأفراد، ومسار المجتمعات، سواء على صعيد الأخلاق والقيم والمثل، أم على صعيد القوانين والتشريع، قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ بَيْنِ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: 24].

نعم إنها دعوة قرآنية إلى حياة كلها عز وعظمة وافتخار، عز يوم يتحرر الإنسان من ربة الجهل والخرافات، وأسباب القهر والخنوع لغير الله، وعظمة يوم يتفلسف الإنسان من قيود الهوى والتبعية العمياء، لمناهج البشر وحاكميتهم الضالة التي تغرزها أصنام الأثرة في نفوسهم، والتفويض بحاكمية الله وسلطانه وحده في أرجاء المعمورة، وافتخار يوم يستجيب الإنسان لقرآن السماء فيحيا حياة الأحرار، حياة فيها منهج رباني متكامل، تجد الحياة ذاتها سعادتها وارتقائها وبهجتها في ظله، لأنها اكتسبت نضارتها من منهج السماء.

وفي نفس السياق يبرز لنا الحق ﷻ، أن القرآن يفجر في قلوب قارئيه ومطّقيه طاقات الهدى والخير، ويحوّل مسار حياتهم إلى أرقى مسار، إلى سبيل الاستقامة والطهر والعفاف والأمانة والصدق والاستكانة لله تعالى، قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ بِحُسْنَةِ

لَنْ تَكْبُرَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
[فاطر: 29، 30].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ [السجدة: 15، 16].

ما أجملها من صفات، وما أجلها من سمات، إنها صفات مضيئة جعلها الله تاجاً على رؤوس قراء القرآن، إنها صفات تنبثق كلها من جلال القرآن ليكتسب أتباعه ظلاً من جلالها وهيبتها، إنها صفات لم تأت عبثاً، إنما كانت ثمرة يانعة حولت سلوك الأظهار إلى أرفع سلوك بسبب حبهم وتطبيقهم لكلام الله تعالى، وهذا الذي أورثهم تجارة لن تبور، تجارة فيها ربح وكسب مضمون، لأنها تجارة مع الله تعالى.

أيها الأحباب:

وكلام الله إذا لامس قلباً حياً، ونفساً تواقفة إلى الخير والصلاح، فإن نوره يتمكّن من كل خلية من خلايا جسم الإنسان، ويساور كل نفحة من نفحات روحه، فيشعر المؤمن بالوجل والخشوع، والرغبة والارتعاش حتى تقشعر منه جلود المؤمنين بسبب تفاعلها مع إحياءاته، وانسجامها مع ومضاته، ثم تلين وتهلأ وتأنس لكلام الله، يقول ربنا ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي فَتَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: (هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23] (لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم... أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم، أي يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعاً له.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى، من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة⁽¹⁾.

بل إن المخلوقات الأخرى تتأثر بسماع القرآن، وأقرب مثال على ذلك صورة الجبل الخاشع الذي خضع لكتاب الله كما قال مولانا: ﴿لَوْ أَرْنَأْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَّصِدِعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

وفي البخاري عن أسيد بن حضير قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكت، فقرأ فجالت الفرس فسكت فسكت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير»، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 6/258.

فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصاييح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذلك»، قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»⁽¹⁾.

وعند مسلم في صحيحه من حديث البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطينين - أي بحالين شديدين - فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن»⁽²⁾.

والقرآن الكريم يحدثنا عن نفر من الجن سمعوا القرآن، فتجاوبت معه أفندتهم، وتفاعلت معه عواطفهم وعقولهم، فأعلنوا إيمانهم بهذا القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰٓ إِلَيْكَ أَنَّهُ سَمِعَ نَفْرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۗ﴾ [الجن: 1، 2] وعنهم قال مولانا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۗ﴾ [الأحقاف: 29] ولكن الجن عندما سمعوا القرآن لم يقبعوا في بيوتهم للرهينة وحصر القرآن في بيوتهم، إنما انطلقوا لهداية أقوامهم به، وترغيبهم بالحياة الطيبة السعيدة إن اتبعوه، وإنذارهم من حياة الضنك والشقاء وسخط الله ومقتته، إن هم أعرضوا عنه ﴿وَلَوْأَ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۗ﴾^(٢٩).

أيها الصائمون:

لقد بث رسولنا ﷺ شكواه إلى ربه تعالى بسبب إعراض قومه عن القرآن فقال: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۗ﴾ [الفرقان: 30].

فماذا نقول لرسول الله ﷺ إن سأل عن سبب هجرنا للقرآن، إننا هجرنا القرآن هجراً غير جميل، فكم من الصلّمين قد صمّوا الأذان عن سماع آياته؟

(1) رواه البخاري، 4/1916، رقم: (4730).

(2) رواه مسلم، 1/547، رقم: (795).

وكم من المسلمين يحكّمون شريعة الطاغوت وقوانين البشر، ويجعلون شريعة القرآن وراءهم ظهرياً؟

وكم من المسلمين يرمقون النصر، ويفتشون عن أسبابه في محاريب أوروبا وخانات أمريكا، ويقفلون القلوب والأبصار عن كلام رب الأرباب؟

إن القرآن هو سبب العزة والنصر والتمكين، ولن يصلح حال الأمة اليوم إلا بالقرآن كما صلح حال سلفها، وإن هذا الكتاب الذي صنع خالداً ومعاذاً وعلياً والقعقاع، هو ذاته الذي يصنع الرجال العظماء اليوم، الذين يغيرون منحنيات التاريخ، ويقومون اعوجاجه . . .

فإلى القرآن يا أمة القرآن، تلاوة وحفظاً وعملاً وتحكيماً ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10].

من يرد ملك الجنان	فليدع عنه التواني
وليقيم في ظلمة الليل	إلى نور القرآن
وليصل صوماً بصوم	إن هذا العيش فاني
إنما العيش جوار الله	ففي دار الأمان

أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله ابن بريدة مرفوعاً قال: (كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»، قال: ثم مكث ساعة ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني فيقول: ما أعرفك فيقول له: هل تعرفني فيقول ما أعرفك، فيقول أنا صاحبك القرآن الذي أظمتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان بم كسينا هذه فيقال: بأخذ ولدكما القرآن،

ثم يقال له: اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً⁽¹⁾

قال أحمد بن أبي الحواري: (إني لأقرأ القرآن وأنظر فيه آية آية، فيحير عقلي بها وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله؟ أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه، وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رزقوا)⁽²⁾

منع القرآن بوعدته ووعيده مقل العيون بليلها لا تهجع فهموا عن الملك العظيم كلامه فهماً تذل له الرقاب وتخضع هذا يا عباد الله شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، وهذا كتاب الله يتلى فيه بين أظهركم ويسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً يتصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا صيام يضان عن الحرام فينفع، ولا قيام استقام فيرجى في صاحبه أن يشفع، قلوب خلت من التقوى فهي خراب بلقع، وتراكت عليها ظلمة الذنوب فهي لا تبصر ولا تسمع، كم تتلى علينا آيات القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة، لا الشاب منا ينتهي من الصبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة، وإذا تليت عليهم آيات الله جلت قلوبهم جلوة، وإذا صاموا صامت منهم الألسنة والأسماع والأبصار، أفما لنا فيهم أسوة؟ كم بيننا وبين حال أهل الصفا، أبعد مما بيننا وبين الصفا والمروة، كلما حسنت منا الأقوال ساءت الأعمال، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله.



(1) مسند أحمد 5/348، رقم: (23000)، وابن ماجه، 2/1242، رقم: (3781)، والدارمي، 2/543، رقم: (3391).

(2) لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي ص 321.